الفلاحة من أربعين عاماً

تاريخ القطن بمصر

يزرع نبات القطن من عهد بعيد ببلاد الهند ومن ثم انتقلت زراعته غربا إلى سواحل بلاد العرب ثم إلى شواطىء شرق أفريقيا ، ولقد أسهب الكتاب فى البحث عما إذا كان القطن معروفا أيام قدماء المصريين فكانت نتيجة هذا البحث عدم الاهتداء بشيء ما إلى اليوم .

كان قدماء المصريين مهرة فى الملاحة وكان لهم ثغور على البحر الأحمر تتجر مع سواحل الهند الغربية ولا مشاحة أنهم رأوا استعمال الهنود للملابس القطنية وأتوا بشيء منها إلى الديار المصرية بيـــد أنه لا يعلم إن كانوا قد أتوا ببذرته فزرعوها فى بلادهم أم لا . أما ما يمكن الجزم بوجوده قدما فهو الكتان ، إذ هو النبات الذى كانت تتخذ منه الثياب وما ماثلها ، وهذا مستنتج مما تركوه لنا من الآثار والرسوم . ومن يعاين هذه الرسوم والآثار لا يجد من بينها دليلا على زراعة القطن وما يتبعه من غزل ونسج ، مع أن قدماء المصريين لم يتركوا شاردة أو واردة إلا طبعوها أثراً خالداً من بعدهم ، على أننا بعد لم نعثر إلى اليوم فى جملة ماعرف من الآثار على مايدل على معرفتهم للقطن اللهم إلا بعض بذور يحوم حولها الريب وجدها « روزلينى » فى مقابر طيبة . أضف هذا إلى مانعلمه من أن الكتاب الأقدمين قد ذكروا أشهر النباتات المصرية ولم يأتوا بذكر للقطن غير بعض كتابات عزيت إلى « بلينى » عام ٧٩ بعد الميلاد «وبولاكس» عام ١٥٠ بعد الميلاد ، وهاك ماكتبه بلينى فى هذا الصدد .

تنمو فى الوجه القبلى تجاه بلاد العرب شجيرة يسميها البعض « جوسيبون » والبعض الآخر « زيلون » ويصنع منها القماش الذى نسميه « زيلينا » . وهى

■ مقتطفات مما نشر فى عدد سبتمبر / أكتوبر عام ١٩٢٢ من مجلة الفلاحة .

شجيرة لها ثمرة تشبه الجوزة داخلها صوف ناعم يغزل إلى خيوط ، وليس ثم قماش يفوقه نعومة وبياضا وتصنع منه جلاليب محبوبة إلى القساوسة والكهنة »

أما بولاكس فقال — « هناك صوف يجنى من أشجار فى بلاد الهند وهو كذلك يجنى اليوم بمصر ، والملابس المصنوعة منه تشبه الثياب الكتانية غير أنها أكثر سمكا ولأشجار هذا الصوف ثمار تشبه الجوزة منقسمة إلى فصوص ثلاثة وإذا ماجف الغلاف الخارجى وانقسم شطرين استخرج منها ما يشبه الصوف ويستعمل فى صناعة القماش » .

والوصف الذى كتبه بولاكس منطبق على الحقيقة فلقد ذكر إنفلاق الغلاف الثمرى الخارجى إلى ثلاث ، وشبه لوزة القطن بثمرة الجوز .

ولقد حدثنا يانس أن كتابتهما عن مصر ماهى إلا حواش دونت على نسختها الأصلية فى القرن الرابع عشر بعد الميلاد.

وفى القرون الوسطى نشر المسلمون زراعة القطن بامتداد فتوحاتهم فى جميع أصقاع أفريقيا شمال خط الاستواء ولهم الفضل أيضاً فى إدخال زراعته فى الأقطار الأوربية فصناعة الملابس منه ، وقد أبان بإسهاب أبو زكريا ابن العوام من كتاب القرن الثانى عشر بعد الميلاد طريقة زراعة القطن. وذكر أن العرب أدخلت زراعته بجزيرة صقلية حين كانت تحت حكمهم فى القرن التاسع إلى القرن الحادى عشر بعد الميلاد .

وذكر أبو العباس النباتى الذى زار مصر عام ١٢١٦ بعد الميلاد أن زهرة البامية تشبه زهرة القطن ولا يعلم إن كان القطن قد ذكر لاستغلاله أم للزينة ومما هو حقيق بالذكر أن عبد اللطيف البغدادى وهو من كبار كتاب القرن الثالث عشر بعد الميلاد لم يذكر القطن بتاتاً عند زيارته لمصر. وهذا مما يبعث الإنسان على الإعتقاد بأن القطن كان مجهولا فى ذلك الحين . على أن البعض يقول أنه لم يذكره عندما كتب عن النباتات المصرية لأنه قد رآه قبل زيارته لمصر فلم يسترع نظره ورغماً من أنه لم يتقيد بذكر جميع النباتات إلا أنه دون ما امتازت به مصر عن غيرها من سائر الأقطار .

وقد ذكر فى مذكرات «ب. بيلون» الرحالة الذى جاب بلاد العرب ومصر سنة ١٥٤٦ — ١٥٤٩ وهى مذكرات كتبها عن رحلته .

«وبروسپر البينس» الذى زار مصر سنة ١٥٨٠ إلى ١٥٨٣ هو أول من رسم القطن الذى كان منزرعا بالحدائق بمصر كشجرة للزينة فى كتابه المسمى «النباتات المصرية» . ولقد كتب فلسنج وهو الذى خلف «البينس» فى تدريس النبات بمعهد بادوا فقال : أطلق پروسپر على نباته إسم جوسيپيم أوربوريم وهو القطن (شجرة معمرة ليست حشيشية) .

ولقد ذكر «فورسكال» الذى نزل بمصر عام ١٧٦١ إلى ١٧٦٢ القطن من ضمن الأشجار الوارفة الظلال .

وبرهن السير «جورج وات» على أن ما وصفه «فورسكال» بأنه جوسيپيوم أربوريوم إنما هو جوسيپيوم هرباسيوم ، ولقد ذكر فورسكال فى مادته الطبية عن القطن الأحمر أنه يأتى من رشيد وأنه يستعمل فى مكافحة الطاعون .

أما نموذج «ده ليل» فهو محفوظ فى متحف التاريخ الطبيعى بباريس وليس له ثمار ومذكور أنه يعلو إلى عشرين قدما .

قطن «جوميل» :

كان جوميل هذا مهندساً وحصل على القطن المعروف باسمه سنة ١٨٢٠ ميلادية من حديقة محو بك ببولاق مصر . وهذا القطن من صنف جوسيپيوم فيتيفوليوم وهو النبات الذى رآه «ده ليل» ولا يمكن معرفة مصدر هذا القطن فبعضهم يقول أنه آت من الهند أو سيلان أو السودان الخ. ومن المحتمل كثيراً أنه لم يستورد أيام جوميل ولا بد أن يكون بالبلد من مدة كبيرة . ويؤيد ذلك أن «منجن» كتب سنة ١٨٢٣ ان القطن أخذ من حدائق القاهرة المغروس فيها كشجرة يستظل بها وهـــذا مؤيد لرأى ده ليل الآنف الذكر من أنها ضمن أشجار الاستظلال .

ولقد أرسل (فيجارى بك) نماذج من قطن جوميل إلى تورارو ، وما زالت هناك . ومن المحتمل جداً أن يكون قطن جوميل فى ذلك العهد (قبل

استيراد القطن لزرعه زراعة واسعة بأربعين سنة) قد تغيرت طبيعته و لقد كانت كلمة (جوميل) هى إسم النوع بجملة أصناف من القطن المصرى ولا يزال الفرنسيون يستعملون كلمة قطن جوميل للدلالة على الميت عفيفى، ومع ان وصف قطن جوميل بأنه ابيض اللون بيد أن المظنون أنه كان اسمر. وذلك مبنى على رأى «لوم» حيث ذكر ان قطن جوميل يشبه قطن برنامبوكو. وكانت البذور تزرع بعيدة عن بعضها بمسافة متر وتترك إلى ان تثمر و تصبح شجرة تستثمر عدة سنين. على انه ظهر أن أحسن محصول هو ما يمكن جمعه حالة صغر النبات ومن العجيب ان ابا حنيفة قد ذكر هذه الحالة منذ نيف وألف عام. وتزرع بذرة قطن جوميل فى مارس و تعطى محصولا فى السنة نفسها. وهذه الحالة تبين ان القطن كما ذكر مستر و. لورنس بولز هو غير قطن نيام كما ذكر سير جورج واط، لأن الأخير لايعطى محصولا جيداً فى مصر وفلسطين، ولا يزهر حتى شهر سبتمبر من السنة الأولى من زراعته. وينتج بعض لوزات تفتح فى السنة الثانية من زرعه.

ولما ان نجح المسيو جوميل فى تجارب زراعة قطنه الجديد خصص المرحوم محمد على باشا مساحات واسعة لزراعته. وتكبد نحو ستة ملايين من الجنيهات فى إدخال زراعة قطن جوميل والأقطان الأخرى المستوردة بالبلاد المصرية. ولم يكتف بزراعته و بيع محصوله بل انشأ كثيراً من المعامل لغزله و نسجه. فصرف مبالغ وافرة فى إنشاء المعامل سنة ١٨٢٦ وأصبح بالبلاد المصرية ٤٤ معملا مقسمة إلى ثلاثة أقسام، وكل قسم له مفتش عام، وكان المفتشون يتبارون فى الإقلال ما أمكن فى المصاريف. ولكن كثرة الأتربة فى طول البلاد وعرضها وعدم تدرب الصناع كان له أثر سيىء على الآلات الدقيقة، وسبب لها كثيراً من التلف. ثم وجد أخيراً أن نسج الأقمشة فى مصر كثير الكلفة. فما حلت سنة ١٨٣٣ إلا وقد أغلقت المعامل.

ولقد انتشرت زراعة قطن جوميل فى طول البلاد وعرضها. ولقد ذكر «ساندارز» عام ١٩٠٣ (صدر قطن جوميل لأول مرة سنة ١٨٢٢ فأرسلت منه مقادير إلى تريستا ومرسيليا. وفى عام ١٨٢٢ وصلت إلى ليفربول بعض غرائر بيع منها الرطل من ١١ — ١٣ بنساً). ولقد ذكرت مجلة (الريفيو) أنه عند وصول القطن المصرى الى ليفربول وجفت القلوب رغباً واضطربت الأفئدة زعراً حتى استدعى الأطباء لأخذ رأيهم فيما يتخذونه من الإحتياطات

لمنع العدوى . وكادوا يقيمون محجراً على كشب من ليفربول . ولما أن كثر من زراعة القطن هبطت الأسعار الى ٨ — ٩ بنسات للرطل سنة ١٨٢٧ . فكان لهذا الأمر أثر سيء ووقع شديد فى نفوس الفلاحين . ومن ثم قلت عنايتهم بإكثاره. أضف الى ذلك الحروب التى نشبت اذ ذاك فى السودان والشام مما سبب استدعاء أغلب الأيدى العاملة للقيام بأعباء الحرب ، ولكن من حسن الطالع جاءت ظروف أخرى بعد ذلك ساعدت على كثرة زراعته ، منها تقليل الضرائب عليه من ١٠ فى المائة الى ١ فى المائة سنة ١٨٤٩ ، وكذلك الحرب الأمريكية حتى وصل ثمن قنطار القطن الى ٥٠ ريالا .

ولقد استورد قطن (سى ايلاند) عام ١٨٢٦ بواسطة محمد على باشا الذى أعجب بارتفاع سعره فكان ثمن السى ايلاند سنة ١٨٢٧ فى ليفربول ١٣ — ١٧ بنساً للرطل وقطن جوميل ٨ — ٩ بنسات للرطل ، فكان من أثر ارتفاع سعر الأول أن أقبل المزارعون على زراعته فكانت بذوره تستورد من حين لحين لبقاء النوع سليما. وقد استورد اسماعيل باشا كميات كبيرة من بذوره سنة ١٨٧٣ وزرعت بأراضى الدلتا . واذا ماقورن هذا القطن ببقيـــة الأنواع الأخرى المصرية لوجد أنه ينضج متأخراً عنها ولقد ظهرت منه أنواع عديدة كالعباسى واليانوفتش .

القطن المصرى الحديث :

منشؤه كان (شجرة ده ليل) أو قطن جوميل وهو النوع الذى منه قطن السى ايلاند . ولقد اكتسب القطن المصرى الحديث قوة النماء ولون التيلة من النوع الأول واكتسب طول الشعرة مع متانتها من النوع الثانى . وهو يستعمل فى المصنوعات الدقيقة والخيوط وكل ما يحتاج الى متانة . وهو لا ريب أحسن قطن فى العالم اللهم الا اذا استثنينا قطن السى ايلاند المحدود الكمية . ويفقد القطن المصرى هذه الميزات اذا زرع فى غير بلاده لأن للمناخ وقوة الأرض واحتوائها على طمى النيل وانقطاع المطر صيفا ثم الرى المنتظم وقلة أجور العمال ، لكل ذلك أثر عظيم فى أن تكون مصر نموذجا جيداً لإخراج مثل هذا القطن .

ابراهيم عثمان
مساعد فنى بقسم البساتين